المسار السردي لشخصية البطل
في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني

مليكة سعدي
المركز الجامعي معسكر

نحاول في هذا المقال تحليل المسار السردي لشخصية البطل في رواية "نزيف الحجر" مستفيدين مما أنجزته السردية الدلالية التي اهتمّت بتحديد قواعد وضائفية للسرد، والسيميائية السردية التي حددت موضوع بحثها في المحتوى، انطلاقا من العلاقة السردية للعلامة اللسانية.

وسنعتمد في تحليل المسار السردي على تحديد أهم البرامج السردية المنجزة من قبل ذات الفعل وضديد الذات مستفيدين من النموذج العاملي الذي اقترحه غريماس و من فرضياته في علم الدلالة البنيوي.

ومفهوم البرنامج السردي هو: " تتابع الحالات وتحولاتها المتسلسلة على أساس العلاقة بين الفاعل والموضوع وتحولها، إنه التحقيق الخصوصي للمقطوعة السردية في حكاية معطاة. و يحدد البرنامج السردي دائما بالحالة في علاقتها بموضوع القيمة التي تنتهي إليها"(1)

تعيش ذات الحالة(أسوف) حالة استقرار و توازن في الوضع الابتدائي نتيجة انعزاله :"الإنسان الذي يفضل الخير لابد أن يهرب من الناس حتى لا يلحقه الأذى"(2)

اتصال:ذات الحالة(أسوف)/ ضديد الذات(قابيل)

يحدث اتصال على مستوى الذات ينتج عنه اضطراب في التوازن الذي كان في الوضع الابتدائي.فهذه الذات الضديدة هي عكس ذات الحالة(أسوف) في كل شيء، فهو لم يذق اللحم مطلقا والآخر مهووس بأكل اللحوم.

تبدأ الذات الضديدة (قابيل) بإنجاز فعلها و هو البحث عن موضوع قيمتها(لحم الودّان والغزال)، ولذلك تتصل بذات الحالة(أسوف) الذي ينكر وجود الودان والغزلان محاولا حمايتها. فموضوع قيمة ذات الحالة(أسوف) هو حماية الودان:"الودان انقرض من زمان مثله مثل الغزلان. أنا لا أعرف آثار الودان"(3)

و يكون المساعد له وصية والده بحماية الودان و الالتزام بصلة القرابة بينه و بين الودان، والمعارض له هو إصرار الذات الضديدة ومساعده.

وفي موقف آخر تعيد ضديد الذات الحركة السردية فتتصل ثانية بذات الحالة(أسوف) لتنتزع منه اعترافا بوجود الودان، ولكنه يصر على عدم إرشاده لطريقه:" الودان لا يعيش إلا في رؤوس الجبال في أوعر الجبال"(4)

وكانت ذات الحالة(أسوف) قد أنجزت عقدا مع موضوع القيمة لدى ضديد الذات أي الودّان وذلك بعدم صيده و حمايته، بعد أن أنجز في صباه برنامجا سرديا جزئيا و هو ملاحقة الودان التي أشرف على الهلاك في قمم الجبال أثناءها، لولا إنقاذ الودان له الذي كانت روح والده قد حلّت فيه. و منذ تلك الحادثة اكتشف صلة الدم و القرابة التي تربطه بالودان و تمسك بالعقد اتجاهه.

و يمكننا تلخيص هذا البرنامج السردي السابق في الحكاية و اللاحق في النص كالتالي:

الذات الفاعلة(أسوف)

موضوع القيمة(الودان)

المساعد(الشباب، الإصرار، التحدي)

المعارض(وعورة الجبل، النذرللودان)

وانتهى هذا البرنامج بفصلة، لأن الذات الفاعلة لم تحصل على موضوع قيمتها(الودّان) فتحولت إلى موضوع قيمة آخرهو الحياة و النجاة، فقاوم طويلا العطش والتعب و كان المساعد له هذه المرة هو ضحيته وجلاده الودان الذي أنقذ حياته.

ومنذ تلك الحادثة حصل التحول الكبير في حياة أسوف ، فعاف اللحم ونذر حماية الودان والوفاء بعهده و عهد والده، فقد تحول هو أيضا إلى ودان: "لقد حل الأب في الودان، والودان حل فيه. هو والمرحوم و الودان العظيم الآن شيء واحد. لن يفصل بينهم شيء"(5) وقد تم تأجيل سرد هذه الحادثة على مستوى النص بتقنية السوابق و اللواحق.

ويحصل اتصال :أسوف/ الحامية الإيطالية، ينتج عنه حالة لا توازن، فتنجز ذات الفعل(أسوف) حركة سردية لاستعادة توازنها تتمثل في الفرار من رجال الكابتن بورديللو الإيطالي، بعد ان تحول إلى ودّان يعدو نحو الجبل، وتحصل ذات الفعل على موضوع قيمتها و هي الحرية و الاستقرار.

ويحصل اتصال آخر بين أسوف و قابيل أي بين ذات الفعل وضديد الذات، ينجز ضديد الذات(قابيل) برنامجا سرديا جزئيا يتمثل في تتبع آثار الودان، فهو مهووس بأكل اللحم منذ الطفولة، و يكون المساند له رفيقه مسعود، و المعارض له أسوف الذي يحاول تضليله بالقول أن ما يراه هو آثار ماعز لا ودان. ولكن بظهور الودان فعلا في المكا ن تنجز ذات الفعل(أسوف) برنامجا سرديا يكون موضوع قيمته حماية الودان من رصاص قابيل، ولكي يشغل اهتمامه رفع رأسه وكبّر لصلاة العصر، وفعلا نجحت هذه الحركة وحصلت وصلة بين ذات الفعل(أسوف) وموضوع قيمته(حماية الودان)، بينما حصلت فصلة بين ضديد الذات (قابيل) وموضوع قيمته(صيد الودان)، كما يبينه هذا المقطع من الرواية: "أنهى صلاته. كرر مناجاته للجبل كي ينجي روحه.التفت خلفه:الودان اختفى"(6)

ونتيجة لنجاح ذات الفعل(أسوف) في حماية الودان من ضديد الذات(قابيل) واستفزازه بعبارة " لن يشبع بن آدم إلا التراب"(7) ، تنجز ضديد الذات (قابيل) برنامجا سرديا للانتقام من ذات الفعل(أسوف) ، فيقوم بتقييده، ويكون المساعد له

مسعود و حبل الليف والمسدس، ولكن ذات الحالة(أسوف) لم تملك أن تنجز فعلا يخلصها سوى ترديد العبارة نفسها (لن يشبع بن آدم إلا التراب) التي ضاعفت من استفزاز قابيل الذي جره على الصخرة العالية التي ينتصب فيها الودّان الأسطوري العظيم بجوار الكاهن الأكبر-يساعده في ذلك مسعود- وصلبه عليها دون أن يقتله، ولكنه تركه هناك رهينة:" أصبح أسوف الآن مصلوبا منفرج الساقين و الذراعين، جسده يغطي الودان الأسطوري المهيب، ويد الكاهن تلامس رأسه الحاسر من العمامة، تربت على رأسه"(8)

وبهذا نجحت ضديد الذات في الحصول على موضوع قيمتها و هو الانتقام، ولكنها لم تنجح بعد في الوصول إلى موضوع قيمتها الأساسي وهو لحم الودّان، فمضت تبحث عن بديل.

ولأجل هذا البديل تنجز ضديد الذات(قابيل) برنامجا سرديا جديدا. يتجه إلى ذات الحالة(أسوف) وهو لا يزال معلقا على الصخرة العالية ويأمره مهددا بأن يرشده إلى مكان إبله، ولكن أسوف يتمسك بالصبر ولا يجيبه إلا بتعويذته المعتادة " لن يشبع بن آدم إلا التراب".

فيجن قابيل و يرى الودان حالاً في أسوف، فيتخلى عن موضوع قيمته الذي لم يصل إليه(إبل أسوف) ليتحول إلى أسوف نفسه، ويكون المساعد له في هذا البرنامج السردي السكين، ويتحول رفيقه مسعود إلى معارض ضمني كما يتضح في هذا المقطع من الرواية:"لوّح قابيل بالسلاح في الهواء مهددا، فتراجع مسعود. تسلق الصخرة من الناحية الأفقية. ضحك في وجه الشمس بوحشية، ثم انحنى فوق رأس الراعي المعلق، أمسك به من لحيته، و جر على رقبته السكين بخبرة من ذبح كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء"(9)

وبهذا ينتهي المسار السردي لكل من ذات الفعل(أسوف)و ضديد الذات(قابيل بن آدم)، و هو يعيد في جميع مراحله جدلية الخير و الشر، وسفك الإنسان لدم أخيه

الإنسان من أجل مصالحه الشخصية، غير آبه بعلاقة الإنسانية، فضلا عن إبادته للحيوان الذي يمكنه أن يجد أكلا في غيره من منتوجات الطبيعة. وليس من قبيل الصدفة أن يكون اسم ضديد الذات التي أنجزت كل الأفعال الوحشية إزاء الحيوان، وانتقلت بعد ذلك إلى إبادة الإنسان نفسه (قابيل بن آدم) الذي يحيلنا إلى أول جريمة في تاريخ الإنسان وهي قتله لأخيه الإنسان و استمرار ذلك الفعل الوحشي المنافي للإنسانية عبر العصور و الأجيال.

ويحيلنا عنوان الرواية(نزيف الحجر) و هو عنوان أحد فصولها الأخيرة أيضا إلى مشهد نزيف دم أسوف على الصخرة العالية فوق رسم الودان و اتباطه بالأسطورة المكتوبة بأبجدية الطوارق: " أنا الكاهن الأكبر متخندوش أنبيء الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودّان المقدس و يسيل الدم من الحجر. تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان"(10)

وعلى الرغم من النهاية المأساوية، يمكننا أن نقول إن الخير هو الذي انتصر على الشر، فذات الفعل(أسوف) حافظت على عقدها و على موضوع قيمتها(حماية الودان من بطش الصيادين) لأن أسوف قدم نفسه قربانا من أجل تطهير الأرض من الشر و حقق الأسطورة، و في المقابل لم يحصل ضديد الذات (قابيل بن آدم) على موضوع قيمته.

ملحق المصطلحات:

Sujet d'état : ذات الحالة

Sujet d'acte: ذات الفعل

Objet de valeur: موضوع القيمة

Acte: عقد

Conjonction:وصلة

Disjonction: فصلة

Adjuvant: مساعد

Opposant: معارض

الإحالات

1 - بن مالك، رشيد: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، 2000،ص148

2- الكوني، إبراهيم: نزيف الحجر، دار التنوير،بيروت،ط1992،03

3 - المصدر نفسه،ص19

4 - المصدر نفسه،ص42

5 المصدر نفسه، ص75.

6- المصدر نفسه،ص89

7- المصدر نفسه،ص105-106

8-المصدر نفسه،ص 108

9- المصدر نفسه، ص146

10- المصدر نفسه، ص 147